الصورة والظل

قصة بقلم سليمان فياض

أقبل « صابر افندي » على حماره ، محاذيا سور الدوار . ظل الحمار يسير به بجوار السور فترة غير قصيرة . اللون الاصفر للسور يثير فيه مشاعر فخر واعتزاز . فالسور شيده العمدة للدوار في مفتتح عهده . وصابر يحس انه ينتمي ، بطريقة ما ، الى هذا السور .

عند مدخل الدوار هبط صابر من فوق حماره . للفور اقبل من داخل الدوار خفيران . واخذا بلجام الحمار . على باب الدوار يقف خفيران آخران ، بندقيتاهما معلقتان من وراء الكتف . بلا رصاص هما الان ، ودائما . ليس لمدخل الدوار باب ، لا بمصراع واحد ، ولا بمصراعين . هذان الخفيران هما مصراعاه ، افضل مصراعين عرفهما صابر لباب . شد الخفيران قامتيهما كحارسين ، بل كما ينبغي ان يكون عليه مصراعا الباب . اضافا الى التعبير المحايد لوجهيهما سمات الحزن على العمدة . سعد صابر بما رآه ، وبما فعلاه ، حتى اوشك ان يبتسم راضيا ومعتزا ، فكر ان معالم الحزن يجب الا تفارق وجهه الان .

التفت صابر الى يساره . مصطبة الخفر الصغيرة المتواضعة ، تقبع في الركن ، بين الجدارين المتعامدين للسور والمسجد . رأى شيخ الخفر جالسا . يهب مع معاونيه واقفين . توقف صابر وادار اليهما وجهه ، دون بقية جسده . اقبلوا نحوه . وقال شيخ الخفر :

ـ تحت أمرك .

وجد صابر انه من الحسم الان الا يتكلم ، فاكتفى بان يدير وجهه في نصف دائرة بين كتفيه ، متفحصا الدوار باكمله ، في تلك الدورة ، منكرا ما يراه ، فاتحا كفيه ، بطريقة خاصة ، تؤكد هذا الانكار . قال شيخ الخفر مبررا :

ـ نحن في حداد ، والدوار بدون العمدة .

اوشك صابر ان يؤكد له ، انهم بذلك يحكمون على العمدة بالموت الحقيقي ، انهم يهدمون كل ما صنعه العمدة . وفكر صابر انه ليس من الحكمة ان يقول ذلك ، بل ان يقول اي شيء على الاطلاق . هكذا كان يفعل العمدة . حسبه فقط ، ان يشير بيده . لذلك طوى صابر اصابعه كلها ، عدا سبابته ، كمن يهدد ، وهزها بذلك النفي الذي يأمر بعكسه . فقال شيخ الخفر ممتثلا :

ـ أمرك . سنفعل .

حنى شيخ الخفر رأسه له . رأى صابر تلك الانحناءة الخفيفة بجانب العين ، فسعد بها . وواصل طريقه في ساحة الدوار . فكر انه ما يزال يطاع ، كما كان الامر من قبل ، في حياة السيد . وتلك ظاهرة مطمئنة حتى الان . أخذ يمر بالغرف التي تحيط بالساحة المغلقة الابواب : غرفة التليفون ، وغرفة السجن ، وغرفة الاستقبال ، وغرفة مكتب العمدة ، وغرفة المزاج الشرقية ، وغرفة المزاج الافرنجية ، وغرفة اللهو الخاصة ، الحمراء الجدران . يباشر عليها ، كما كان العمدة يفعل في حياته ، الى ان يعد مجلس الدوار . ثم توقف ، كالمعتاد . عند الممر المقابل لباب الدوار ، والذي تقوم على جانبيه . حظائر الجواميس والبقر ، والحمير ، والخيول ، ومخازن القمح ، والاذرة ، والارز ، والشعير ، والفول ، وبذور اخرى منوعة . واستدار عائدا الى مجلس الدوار ، الملاصق لحائط المسجد .

رشت ارض الدوار بالماء . وفرش فوقها الحصى ، وملئت القلل بالماء النيلي ، وقطر في فوهاتها ماء الورد . جلس صابر على الحصير فوق المصطبة . جوانب الحصير الثلاث احيطت بالوسائد . وفرشت بفراء الخراف والماعز . وجاء مجلسه كما كان من قبل ، على يمين العمدة ، في ذات المكان الذي تحده علامات ونقوش زخرفية ، حمراء ، وخضراء زاهية . واشار صابر لمن لا يراه . فانطلق في فضاء المجلس دخان البخور العطر ، بينما وقف النفر مشدودي القامات في انحاء الدوار ، كما كانوا على عهده . وصفق صابر فاحضرت الشيشة ، واختلط دخانها الازرق ، بعبق البخور ، بالذكريات والخواطر .

لم يتغير شيء بعد رحيله ، سوى ان الشتاء اقبل مبكرا مع الخريف . تكاثرت السحب والغيوم في سماء القرية . واصبح السائرون في الحارات والدروب يسيرون بلا ظل . فالشمس ، منذ رحيله ، صارت تتخفى كثيرا وراء السحب ، حتى بات صابر يعتقد ، ان الشتاء القادم سوف يكون شديد العتمة ، قارس البرودة ، طويلا اكثر مما كان أي شتاء آخر . الحيوانات ايضا صارت تسير بلا ظل : الحمير ، والبغال ، والجواميس ، والابقار ، والخراف ، والقطط ، والكلاب ، والدجاج . الطيور صارت ترفرف ، وتنقض تحت سماء غائمة ، فلا ينبيء لها ظل عنها . النباتات تتارجح فوق اعوادها ، وجذورها ، فلا تحدث ذلك الظل غير المنظور ، الذي يجعل الوانها تختلف وتتموج ، وتتغير الوانها من ساعة الى اخرى ، فكر صابر : انى يصبح للاشياء ظل ما ، والشمس غائبة ، تتحجب اكثر النهار ، كقمر الليل ، وراء غيوم الخريف ؟ لقد مات العمدة !

ترتج القرية باسرها لموته . الكل يسير وراء نعشه ، وحوله . يحمله الاعيان ، ويتقدمه الخفر والشيوخ ، وتعزف ، في مقدمة الجميع

فرقة المركز الموسيقية ، الحانها الجنائزية . اعداء العمدة وخصومه يسيرون وراءه الى القبر . ايا كان السبب : الخوف ، او النفاق ، او القلق من الغد المجهول والمخيف من بعده ، او التأثر بمعنى الموت ، او اخذ العبرة من لحظته المحتومة ، او الرغبة في اثبات انهم ، على عدائهم المستتر ، كانوا من معيته ، وما يزالون من معيته ، او حتى الفرح والشماتة بموته . فها هم يسيرون وراءه . يحسب ، لكثرة المشيعين ، ان بيوت القرية ، واكوام سباخها ، وتلالها ، واشجارها ، ومستنقعاتها ، وقنواتها ، تسير وراءه . يسمع واحدا يقول لاخر :

— صدقني . الحيوانات والطيور رايت وفودها تسير في جنازه . فيضحك ذلك الاخر ، ويجيبه :

— حتى في موته ، سار في زفة . رحمه الله ، كان يحب الزفة . يعرف ذلك عنه ، لذلك كان يعدها له ، ليبهج خاطره ، ويرفع من روحه ، حين يتجول متنقلا في بطانته ، بين مضافات القرية في ليالي رمضان ، ويزور بيوت الاعيان في الاعياد ، وحين يسافر في رحلة عمل الى المركز ، او الى احدى القرى القريبة او البعيدة . فما المانع من الوسيلة ، اذا كانت الغاية شريطة ، والهدف هو اسعاد العمدة ؟. تهتف امرأة في لوعة ، على الملأ ، وهي تصرخ ، وتشنشن بشالها الاسود ، وعلى كتفها رضيعها :

— ليتني فقدت زوجي ، او ولدي ، وبقيت يا عمدة .

عائل القرية وأبوها كان العمدة . حاميها ، وحارسها . (من داخل صابر ، انبعث صوت غريب ، يقول ضاحكا : وحراميها . فاخرسه) لم تنطق الندابة الا بما كان ينبغي ان يحدث ، ان يبقى العمدة ، ويرحل اي احد ، بل اكثر من واحد (عاد الصوت الغريب يقول ساخرا : حتى أنت . فاستبعد صابر هذه الفكرة بسرعة) .

يعاوده الشعور بالبهجة . فدنيا القرية تهتز من اجل العمدة ، تكشف عما كانت تخفيه من الحب ، أومن الهيبة والاحترام ، ووراء الخوف منه . (يقول له الصوت الغريب : الهيبة والاحترام ، ثمرة الخوف . فيجيبه صابر : هل الهيبة والاحترام الا الخوف نفسه ؟) لن ينسى ابدا لشاعر القرية العجوز ، قوله لاحد جلسائه الاصفياء :

— حين مات العمدة الاسبق ، لم يكن يخافه احد ، بل كانوا يكرهونه . ومع ذلك ، ساروا في جنازه كما ساروا اليوم .

وضحك الشاعر . اهتزت لحيته ، وسقط الناي من يده ، وتألقت غضون وجهه الاسمر ، بتجاعيدها اللامعة ، المكتنزة ، بمنخاره الافطس ، المتشمم ابدا كالقطة والكلب . لم يدر ان جليسه ذاك ، واحد من عيون العمدة ، بل من عيون صابر . قال له السيد على الملأ :

— سمعنا أشعارك سنين وليالي . متى تكف عن ان تملأنا يأسا وحزنا باشعارك ؟ تقبض نفسي كلما حضرت ليلة حظ ، تحضرها أنت !

جبن الشاعر . اصفر وجهه . ابتسم ابتسامة مصفرة . ولم يقل كلمة . لكن هذا الشاعر كان ينشد ، في الصباح التالي ، كلماته المحجبة ، والملغزة ، مرة اخرى . والكل يستحسن ، حتى وهو لا يفهم . فالشاعر يأخذ له ثأرا ما . الكلمة بضاعته ، لكن الكلمة لا تقيم بناء ، لا تشق قناة . لا تخرب بيتا ، او تعمر سجنا . كلمة العمدة ، وحدها كانت تفعل . كلمة عمدة هي ، وليست كلمة شاعر .

— سيختلط الحابل بالنابل ، الخوف يذهب بذهاب العمدة . وبالخوف تصلح الرعية . الله يخيف عباده بالنار والعقاب ، بالمرض والغيب . ولن يكون هناك احترام ولا هيبة لكبير . فأين هو الكبير بعد العمدة يا صابر ؟

شيخ المسجد يسر له بذلك . يبتسم له ابتسامة ذات معنى . وفود القرى المجاورة ، والنائية ، والمركز ، والمديرية ، تسير في جنازه يرون بأعينهم ثمرة الحب والخوف ، بعد موته ، وفاء مجسدا ، ولوعة حية ، يكتشفون لتوهم ، كيف نصير قرية بأسرها ظلا للعمدة ، تتحرك بحركته ، تتوقف لوقوفه ، تنام لنومه ، تغضب لغضبه ، تضحك لضحكه تشرق او تغرب ، حتى عندما تكون الدنيا ليلا ، والشمس غائبة ، والقمر محتجبا . ما كانوا يسمعونه ، ولا يصدقونه ، يرونه بأعينهم صورة حية ، تحف بها مسيرة حزينة ، ومراثي الندابات .

— ٢ —

جاء الشيوخ والاعيان ، فرادى ، على غير موعد ، حين رأوا الدوار مفتوحا من بعده ، وأنواره ساطعة مع الغروب ، وخفره وقوفا ، وجلسته ، ذات جلسة العمدة ، معدة ، ظلالهم تسير معهم ، في ضوء الفوانيس . تبدو الظلال غريبة لعيني صابر ، كأنه يرى ظلالهم لاول مرة . منذ متى كانت لهم ، صارت لهم ، هذه الظلال ؟!

حيوا ، وجلسوا في أماكنهم المعتادة من المصطبة ، على حصيرها المنقوش ، والمفروش بالفراء صامتين . ينظرون الى مكانه الشاغر . لا ينكرون على صابر مجلسه ، على يمين الراحل ، في مكانه المعتاد من قبل ، على الاقل حتى اللحظة . خاطبهم صابر في ذات نفسه :

« الا ترون انني خيركم لخلافة السيد . لقد اختارني العمدة . والعمدة خير من كان يعرف حقيقة الرجال ؟ »

تبدو الدهشة في عيونهم ، لانه يعيد المجلس سريعا ، كما كان ، والحداد ما يزال قائما في القرية ، في المزارع ، في البيوت . فكر صابر انه قد ضرب ، بعودة هذا المجلس ، ضربة موفقة ، وفي حينها ، لكي لا تنعقد مجالسهم الخاصة في بيوتهم ، ويوسوس بعضهم الى بعض ، ويشوش بما يدريه ، وبما لا يدريه ، ولم يكونوا يدعونه الى مجالسهم في حياته ، الا لانه كان كاتم أسراره ، وحامل أختامه ، ملاكه الموحى ، وشيطانه الماكر ، والمدبر . ما يزال في نظرهم ، برغم مكانته من العمدة ، برغم مكانه الان من هذا المجلس ، ذلك الخادم النشط الذكي ، الذي كان يرتدي جلبابا متسخا بالشقاء ، وبالطو مستعملا من قبل ، يعلوه تراب الايام ، والذي رفعه العمدة اليه ، فارتدى جلبابا افرنجيا ، مكويا دائما ، ابيض اللون ، حريريا ، و « جاكت » كحليا غامقا ، يحتفظ ببنطلونه للاسفار ، والذي صار في حياته العمدة ، كاتبه ومأذون القرية ، ورسوله ، وثعبانه المتلصص للاخبار ، والذي لا عائلة له ، وهو بلا سند من الرؤوس والسواعد ، وحملة المجاريف ، والفئوس ، والمناجل . (قال له غريبه : أرأيت ؟ ولم يزد) . وشعر صابر بالاكتئاب الحاد ، مع الخدر ، وغيمة الدخان الازرق .

تناثر في المجلس حوار قصير عن الراحل ، والشيشة تدور على الكل . تتردد مصمصة الشفاه ، تتصاعد تنهدات من الصدور ، يعلم أنها ليست صادقة ، يعلم وحده انها سعيدة ، لتحررهم من الخوف منه ، لمجيء دورهم في وراثة تركته . نظراتهم ، برغم جودة الصنف ، برغم قوة التبغ ، لا تقدر أن تبتهج ، قلقة على الغد ، فمن يكون العمدة من بعده ؟ بل من يكون العمدة الآن ؟ خاطبهم في ذات نفسه :

« انا ايها الانتهازيون ؟ (قال له غريبه : وأنت ؟ فلم يرد عليه) لا حق لكم فيه مثلي . اوفاكم كنت . معه ظللت دائما . نفيرتم جميعا ، وبقيت . جئتم وذهبتم ، وعدتم لتذهبوا ، ولتعودوا . ولكنني ، وحدي ظللت معه ، خادمه المخلص » .

يشغلهم ، الان ، السؤال المحير ذاته ، الذي كان يشغلهم في حياة العمدة ، كلما رقد مريضا ، كلما انفجرت ازمة في حياة القرية ، او توترت العلاقة بينه وبين مأمور المركز ، ومدير المديرية ، كلما هبت عليها عاصفة جامحة ، من صديق أعمى ، أو عدو موتور . يفكرون في ان يرثوا دائما ، حتى عندما كان حيا ، يرثوا حتى ابناءهم وازواج بناتهم . اي قانون جائر ، يجعل قاضيا ، يحكم بالثروة ، للابناء ، دونه ، هو الظل الدائم للعمدة . لكن اين ذلك القاضي الان ، وقد ذهب العمدة ؟

طأطأت رؤوس ، وبانت في عيونهم نظرات حزينة ، مختلسة ، حذرة وماكرة ، متوددة وثعلبية ، اكثرها اليه . خاطبهم بذلك الصوت الداخلي الخاص ، الصامت ، وشفتاه لا تنفرجان :

« أسراره تريدون : أوراقه الخاصة ، واملاكه المجهولة ، في القرى ، والمدن البعيدة ، حتى لزوجته وبنيه . لن تعرفوها مني ابدا ، ان صرت خليفة للعمدة اولم اصر . ان صرت خليفة للعمدة فانا وارثه . ان حرمتموني بكثرتكم ، وغشكم في اللعب ، من خلافتي له ، فعقابكم انكم لن تعرفوا شيئا ابدا،حتى ابناؤه منصلبه ، لن يعرفوا عنها شيئا، هي من حقي وحدي،لانني انا الذي بنيتها للعمدة ،محبة له وصنتها للعمدة اخلاصا مني ، ونميتها للعمدة فناء فيه . وها هو الان قد رحل ، فمن يستحقها من بعده ؟ انا ، ام انتم وابناؤه ؟ بدون العمدة ، ما كنت لاكون ، وبدوني ما كان العمدة ليكون ، فمن العمدة من بعده ؟ من وارثه ؟ »

انصرفوا تباعا يترنحون ، مع منتصف الليل . وبقى صابر من بعدهم ، وحيدا ، مع المكان الشاغر ، يجتاحه أسى مفاجيء ، منذر بالخوف ، فالزمن ينسى ، والمطامع تتجمع . أحس بالضعف ، وشعر بالضآلة نفسها التي كان يشعر بها بازاء العمدة . ووجد نفسه يفكر فجأة ، في ذلك السؤال المحير : « هل ينحاز ويخضع ، ويصبح ظلا لاخر ؟ هل ترى ذلك الاخر يقبل ان يكون ظلا له ، من كان ساعدا للعمدة ؟ »

وآنلمجلس الليل ان ينفض . فنهض ، وركب حماره . اجتاحته رغبة في ان يذهب اليه ، ويسلم عليه ، كعادته معه قبل ان يعود الى داره. سعد لقراره المفاجيء . هكذا كان يفعل معه عندما كان حيا ، وهكذا ينبغي ان يفعل معه بعد رحيله . ما يزال في قرارة روحه ، حيا ، كما كان . فكر ان الالهام المفاجيء ، ذات الالهام الذي كان للعمدة ، ينتقل اليه الان . واحس ان العمدة يتجسد فيه اللحظة .

— ٣ —

بلغ مدخل المقابر انزلق عن حماره ، وتركه عند المدخل . الباب الحديدي ، والمدفن ذو الجدران العالية البيضاء والقبة الشامخة ، تبدو كانها قصر ، يلوح في ضوء الفوانيس الساطع ، كانه مسقى بضوء الشمس ، يؤكد ان العمدة ما يزال عمدة ، حتى في موته ، عمدة على الموتى ، كما كان عمدة على الاحياء ، بل كما لا يزال عمدة عليهم . ليست المقبرة الا قرية اخرى هاجعة ، يباركها الان العمدة بروحه ، كما كان يبارك الاحياء في حياته .

اسرع الخفير الحارس الذي انضم الى حراس المقابر . كان حارسا للعمدة في حياته ، وها هو الان يحرسه أيضا بعد موته . فكر انه اكثر وفاء منه ، حقد عليه لذلك . تمنى لو يكون في مكانه . حدث نفسه بان مكانه ، ليس هنا بجوار العمدة ، ان مكانه هناك مع بلدة العمدة . لو نهض العمدة حيا الان لقال له ذلك . ليته فعل ، وقال للجميع ، شيوخا واعيانا ، خفراء وأجراء :

— صابر خليفتي من بعدي .

فتح الحارس الباب الضخم . فسار صابر بالمشى ، في ضوء الفوانيس المشتعلة . اشار للخفير الحارس ، فعاد الى مكانه عند الباب . مشى بخشوع وتطامن ، خفيف الوطء ، وقور السمت ، قصير الخطا . اجتاز عقودا بالمشى الطويل ، واحدا اثر آخر ، مفكرا في تدبير العمدة . كان يحسب حساب كل شيء ، حتى هذا المقام ، وتلك المنامة .

توقف امام واجهة الضريح . على بعد خطوات ، انحنى ، وانثنت يده نحو صدره ، كانها تحمل نفس الاوراق ، التي كان يحملها له في كل ليلة . طأطأ رأسه تحية :

— مساء الخير يا عمدة .

توقع أن يجيبه الصوت :

— خير .

اوتشير اليه العين الشاردة ، والفم المزموم ، بايماءة الرأس :

— اقترب .

وعى انه الان لا يجيب ، ولا ينظر ، ولا يوميء . اوشك ان ينصرف خشي أن ينهض ، ان تطالعه ذات النظرة الغامضة ، الغاضبة ، الساخرة . يعرف هذه النظرة جيدا . ظل مسمرا في مكانه . همّ بالاعتذار لمجيئه الان . ودّ لو يرفع رأسه ، لو يقول للعمدة شيئا ، لو يراه يروح ويغدو وأمامه كالاسد الحبيس ، بذات الخطوة الثابتة ، الواثقة ، المتكبرة ، والمزدهية ، واليدين المعقودتين على الصدر ، والنظرة الشاردة . قراراته في تلك اللحظة ، تكون مفاجئة ، ومبهرة ، عبقرية ، وغير متوقعة . وقد تسعد ، وقد تغضب : في خلافات عائلات القرية ، في صراعات القرية مع القرى الاخرى ، ومع المركز ، وفي شئون الري ، ومياه المجاري ، واكوام السباخ ، وأسراب البعوض ، والذباب ، ودودة القطن ، بل وفي خلافات القرى الاخرى ، مع بعضها البعض ، حتى صارت لقريته سمعة لا تجارى ، وكلمة لا ترد ، ومكانة بارزة بين القرى ، على تواضع بيوتها ، وجهالة أهلها ، تحت شمس النهار ، وقمر الليل .

لحظ صابر ، من الضوء المسلط عليه ، من مسافات متباعدة ، ان له على الارض اكثر من ظل ، ظلالا عديدة ، متقاطعة ، مختلفة الاحجام، والاطوال ، متعددة الدرجات . فزع لما تراه عيناه على الارض ، كانه يراها لاول مرة . هل هي ظلاله بين الاخرين الان ؟ للعمدة كانت نفس الظلال . دار بخاطره ، انه ، اللحظة ، بين يدي العمدة، ظل له وحده، وببركته تتحلق حوله كل الظلال الان ، ظلاله هو فكر : هم جميعا صاروا ظلالا له . ذلك ما يقوله له العمدة الان . العمدة كان يحب ان يقف ، دائما ، في ملتقى منابع الضوء ومصادره ، في المحافل ، وبين الجدران . يحب الليل ، ويكره الشمس . يكره ان تكون وراءه ، ويرى ظلا وحيدا امامه . يكره ان تكون الشمس امامه ، ولا يرى ظله الوحيد من خلفه . هتف في سره مخدر الحواس لم يزل :

— مدد يا عمدة . مدد .

(قال له الغريب في داخله : آنت مسطول ، وتخرف . فاشار اليه بيده ليخرس ، حتى لا تتبدد قدسية اللحظة) . رفع رأسه قليلا ، تجاه شاهد القبر ، وقال للعمدة :

— اولادك بخير يا عمدة .

ابتلع ريقه ، واضاف بتردد ، وتودد :

— أمهم بخير ايضا يا عمدة .

وقال مؤكدا للعمدة :

— حزاني من اجلك : الام ، والبنون ، والبنات .

واضاف :

— لكنني اجتهد يا عمدة ، لكي اجعلهم يشعرون انك ما تزال حيا، باقيا بينهم ، وبيننا .

ثم قال بتوسل .

— ضع سرك في خادمك يا عمدة ، حتى اقدر ان اسعدهم ، لكي يبتسموا ، كما كانوا في حياتك .

تذكر صابر صورته ، صورة العمدة الكبيرة ، بطول الجدار ،بعرض الجدار ،مقيمة بين اولاده،معهم،في استراحة البيت . انبثق الخاطر في رأسه فجأة ، كما كان ينبثق في رأس العمدة فجأة ، اذ كان يحدثه ، كانه يحدث نفسه ، كانه ، هو ، غير موجود امامه ، ويروح ويجيء ، بين الجدارين ، حوله ، يتامل مفكرا بصوت مرتفع :

« الدوار تنقصه صورته ، فوق المصطبة ، على الجدار »

شعر صابر بروح العمدة تحلفيهالان. بركاته تغمره بافضالها ، كما كانت ، بل تتوج اللحظة هذه الافضال عليه . رفع رأسه في فرحة وهتف :

— الشكر لك يا عمدة .

(الغريب عاد يقول له : العمدة لا يراك ، ولا يسمعك ، فاشاح

صابر بوجهه عنه) . فكر صابر ان العمدة يراه الان ، ويسمعه ، ويعرف الان اكثر مما كان يعرف . رفع عنه ، في حياته الجديدة ، كل حجاب ، كانت تحده قيود الجسد . صار موصولا بالملأ الاعلى ، بالسر الاعظم . وعى صابر انه قد رفع رأسه في حضرة العمدة ، وانه شك في معرفته المطلقة ، للحظة فطأطأ رأسه ، وهمس :

ـ معذرة يا عمدة .

وأضاف مؤكدا عزمه ، مظهرا طاعته :

ـ أمرك مطاع يا عمدة ، وارادتك نافذة .

ثم همس بمودة في ذات نفسه :

ـ سأذهب الان الى بيتك يا عمدة ، لارى ما هم في حاجة اليه غدا ، ساسليهم ، واقول لهم ما كان لك ، وما كان عليك . لا . معذرة يا عمدة ، فما كان عليك شيء ابدا . دائما كان لك علينا ، وابدا كنت تعطي ما تحب ، لمن تشاء ، تفعل ما تريد وتود ، ولا تسأل عما تفعل . وعهدي لك يا عمدة ، وباسمك يا عمدة ، ان يظل كل شيء كما كان ، فاعنّي يا عمدة . مددك لي يا عمدة .

(الغريب ضحك ، وسكت . فذعر صابر وخاف) . تراجع صابر بظهره ، محني الرأس قائلا :

ـ تصبح على خير يا عمدة .

تراجع ، تراجع ، حتى انفرج المشى ، عن واحد من عقود المدخل ، فاستدار ، وهبطت يده المثنية عن صدره ، وشد قامته ، ليراه الخفير الحارس مرفوع الهامة . والقى بنظرة أمامه ، باحثا عن ظله ، لكن الانوار كلها ، كانت متجهة بضوئها ، وطنينها ، الى الداخل تجاه قبره . فاجتاحته ، في تلك اللحظة ، كآبة ساحقة .

ـ ٤ ـ

عاد صابر من بيت العمدة الى بيته ، ممتطيا حماره ، يلهث وراءه خفيران من طول ما عدوا مثلهما كان يلهث يوما وراء حمار العمدة ، قبل ان يرضى ويرفعه اليه ، حتى ناطح برأسه رؤوس القرية ، شيوخا واعيانا ، بل صار سوط العمدة عليهم ، وعينه بينهم . (حدثه الغريب. قال : تذكر . الماء لا يصعد العالي ، والعين لا تعلو على الحاجب . واضاف الغريب : لا تؤمن انت بذلك ، ولا تراه عدلا ، فالناس مواهب وهمم . لكن الناس يؤمنون به . فاكتاب صابر) .

هبط صابر عن الحمار ، فاخذه الخفيران ، وعادا به بينهما ، الى معلفه ، ومربطه . ودخل صابر الى بيته . تحف بمدخل حديقته الاشجار والزهور ، كبيت العمدة ، ترتفع به الدرجات الى بابه ، كبيت العمدة . ونظر الى السماء فرأى النجوم تضحك له ، وسمعها تغني في علاها . (وثب امامه الغريب ، في هيئة شيخ المسجد ، يقول له : « ما اظن ان تبيد هذه الجنة ابدا » لكن الايام دول يا صابر . فلمن صابر كل الاصناف الرديئة ، والجبدة ، التي تأتيه دائما بذلك الصوت الغامض ، والمفاجيء) . يطل الاولاد والبنات عليه ، يمرق من الباب ، كما كان يفعل العمدة . الستائر المزاحة تعود لتغطي زجاج النوافذ اللامع . الابواب الموارية بالداخل تصفق ، برفق بالغ ، كلما تقدم بداخل الفسحة الممتدة .

وقف امام غرفته الخاصة . أخرج مفتاحا اداره في ثقب الباب . ولج الى الغرفة ، وصفق الباب وراءه ، والمفتاح في يده . طالعته ، على الفور صورة العمدة ، وسط النور الخافت ، المضاء ابدا حولها . انحنى امام الصورة كعادته ، لكنه قال له في هذه المرة ، لاول مرة :

ـ مساء الخير يا عمدة .

تجدّد الحزن في قلبه لرؤية الصورة . توقف متاملا في الصورة ، في عيني الصورة ، هما اكثر من اي شيء آخر ، في وجهه الكريم ، كانا منبع سره وسحره . وصل بهما عينيه ، ليستمد منهما سره وسحره. لكن التواصل بدا عصيا ونائيا .

جلس الى مكتبه الضخم الفخم ، الحاشد بالملفات ، والاقلام ، كما كان يفعل في اخريات كل ليلة ، قبل ان يودعه . عاش مرهقا مع العمدة من كثرة العمل ، وطول اليقظة ، يحلم بالنوم وهو يقظ ، يحلم بالنوم وهو نائم . الان ، ايضا ، لا يستطيع ان ينام ، حتى ان يرغب في النوم . رحل العمدة ، وبقيت القرية ، والبطانة ، وهو . والكل ينتظر الخطوة القادمة . يستطلع الغيب في الاكف ، والورق ، وفناجين القهوة ، وغيوم الدخان الازرق ، وحركة الطير ، وكلمات الفال . ليرى الحدث الباهر المفاجيء ، العمدة القوي الجديد ، خليفة العمدة القوي الراحل .

تأمل من جديد ، من مجلسه ، في صورة العمدة . هو بنفسه العمدة كما خلقه الخالق ، بقفطانه ، وجبته ، بشاربه ، وأنفه الافطس بجبهته العريضة المرتفعة ، وعينيه النفاذتين . من يومه كان رجلا لم تنجبه ام ، ولم تخرج مثله الى الدنيا مولدة . بسط سطوته بثقته بنفسه ، وبثقة رجاله به ، لثقته هو بنفسه . صار عمدة القرية في شبابه ، على صغر عائلته ، وتواضعها ، حين نشب الخلاف بين عائلات القرية . حمل في يده سوطا سودانيا ، احليل ثور ، ذا سبعة افرع سار في شوارع القرية ، يحف به الخفر ، بسياطهم ، وبنادقهم معلقة على اكتافهم . يضرب الجالسين على المصاطب ، يسوقهم الى العمل ، او الى النوم ، يحول بينهم وبين ان يجتمعوا معا . فماذا يمكن ، كما رأى العمدة ، ببصيرته الثاقبة ، ان ينتج عن اجتماعاتهم . في العصارى ، وفي الليل ، وبين فترات الحصاد ، وفي انتظار الرية القادمة ، سوى الشر ، والافساد ، والخديعة ، والتآمر ، وارسال الشكاوى . صار على الكل ان يكدح في الارض ، او ان يهجع ، او ان يلهو ، او ان يغلق عليه باب بيته ، هو وأسرته ، يصبح حده حد نفسه ، همه هم شخصه واهل بيته ، لان العمدة حر ، ويقظ ، ولا يفوه ضرب عائلة واحدة في البداية ، بالعائلات الاخرى ، ثم ظل الضرب المتسلسل ، والمنفرد بعائلة واحدة في كل مرة ، حتى صارت القرية وحيدة امامه . وصار هو ذلك المستبد العادل ، الذي قال عنه الامام ، انه وحده الذي يصلح الشرق . كان العمدة يقول له ، دائما :

« آخر الدواء الكي يا صابر »

« آخر الدواء الكي يا صابر »

فيقول هو له :

« اول الدواء الكي يا عمدة ، حتى لا يكون هناك وسط ولا آخر ».

شعر صابر انه الان اكثر قربا من العمدة ، كحاله في اعقاب صلاة خاشعة ، وشاكرة ، ومتذكرة لنعم وليّ النعم .

حدق صابر في صورة العمدة امامه ، وصل عينيه بعيني الصورة، انفتحتا على اقصى استدارة لهما . في لحظة مكابدة ، أحس بتيار غير منظور ، ينفذ الى عينيه ، من عيني الصورة ، كالنسمة اللطيفة الهادئة ، يتدفق عبر هواء الغرفة الساكن ، والمسافة النائية غاية ما يكون القرب . أحس بالدفء ، بالتخمة بالنشوة . أغمض عينيه . تألقت وراء جفونهما عينا العمدة . ابتسم راضيا . حتى رأسه في صمت شاكر . فكرة لو فتح فيه الان ، لسمع صوت العمدة ، لو نظر في المرآة ، الان ، لرأى جسد العمدة .

سمع طرقا على الباب . ظنه روح العمدة قادما . توفزت كل ذرة في كيانه ، رهبة ورغبة ، شوقا ورعبا . فكر : لو اراد لما وقف دونه باب مغلق ، ولا جدار منتصب . أحس انه ، في مجلس الذكرى ، في لحظة محاطة بالاشباح والاسرار قال بتوجس متوتر :

ـ ادخل .

وورب الباب . قليلا وورب . أطلت أم العيال ، وابتسمت متسائلة ، عله يأذن بالدخول . شعر بالغضب ، لان القادم لم يكن هو . شعر بالراحة ، لانها هي . فكر وهو يراها : هو له الظل. وعليه ان يأذن للظل بالتحرك . نظر الى الظل ذات نظرة العمدة .فكر: غدا ، ستصبح سيدة القرية ، وتتوارى زوجة العمدة . اشار لها بطرف يده ، بهزة من رأسه ، ان تذهب الان ، فتوارت ، وما تزال تبتسم .

جذبت الباب وراءها برفق . فانغلق . فكر : هكذا ينبغي ان يفعل الاخرون ، حين يروا اشارته ، وهم يبتسمون في رضا وطاعة (فاجاه غريبه بسؤاله : هل تراها ما تزال تبتسم الان ، بعد ان حجز بينكما الجدار والباب ؟) فكر في مغادرة هذه الغرفة ، في الذهاب الى غرفة نومه الخاصة . نهض (فاجاه الغريب بسؤال اخر : منذ متى لم تنم معها في غرفة واحدة ، في سرير واحد ؟) توقف امام الصورة ،وقال:

ـ تصبح على خير ياعمدة .

وفكر انه سيأتي في الصباح ، ويقول المصورة :

ـ صباح الخير يا عمدة .

ثم يذهب لتحيته في ضريحه ، قائلا له :

ـ صباح الخير يا عمدة .

(عاد الغريب يقول له : حررك الموت منه . لكنك تصر على ان تظل ظلا . فقال له صابر : منحني هذه الغرف ، واشياء كثيرة تعرفها. فقال له الغريب : وسلب روحك ، فصرت عبدا) . فكر صابر بانزعاج في هذا الصوت المتمرد الذي ينبعث من داخله ، على غير توقع .

ـ ٥ ـ

عندما ذهب من وقت العصر معظمه ، عندما كانت الشمس تنحدر مسرعة ، وراء الترعة ، صوب حافة الافق الغربي ، كان كل شيء في الدوار كما كان بالامس ، كما كان قبل رحيله ، عدا شيءواحد: الجدار المظل على المصطبة . التصقت به ، مائلة قليلا الى الامام، صورة العمدة ، ملونة ، مجسمة ، باهرة ، مضاءة بنور خفي وسنان، تخطف العيون ، وتخلب القلوب . يمتد تحتها مسندان مدوران ،يحددان مجلسه الشاغر من بعده .

يدير صابر ظهره ، ويجلس تكاد اطراف جبته ، وكم قفطانه ، ان يمسا حافة مسند الفراغ الشاغر . راح صابر يحرك اصابعه ، على حبات المسبحة ، يعاهد نفسه في مجلسه ، تحت صورة العمدة ،والخفر وقوف في اماكنهم ، ان يظل على العهد ، ان يزور آل بيتالعمدة ، في كل صباح ومساء ، ضريح العمدة ، مع كل شروق وغروب ، صورةالعمدة في البيت ، اثر كل يقظة ، قبيل كل غفوة ، ويقول له :((صباح الخير يا عمدة)) . واسقط ابهامه حبة مسبحة . ((بعد اذنك يا عمدة)) واسقط ابهامه حبة مسبحة)) . مساء الخير يا عمدة)) . واسقط ابهامه حبة مسبحة . ((بعد اذنك يا عمدة)) ، واسقط ابهامه حبة مسبحة . وعاوده الشعور بالقلق ، فاعتزم ان يلجا اثر انفضاض المجلس، الى الشيخ ((مصطفى)) ، عراف القرية المجاورة ، الذي يستر بشياب الرجل جسد انثى . سيطلب منه ان يقرأ له الغيب ، وان يأتيه بروح العمدة ، ليساله ، ويسمع جوابه ومشورته .

اقبل شيخ الخفر نحوه ، تحف به رائحة الدخان الازرق ، تعد بالمنى والاحلام . واقبل من بعده الاعوان السابقون للعمدة ،والاعيان، جاءوا معا يخبون في عباءاتهم ، كانهم كانوا معا ، وكانهم الان على موعد . (قال له الغريب كمن يتفرج : الان تبدأ المتاعب) اخذوا واحدا بعد اخر بالصورة ، حد قوافيها بعيون يعرفها جيدا ، عيون يتنازعها اللحظة : الحزن والفرح ، الكآبة والسرور ، التعاسة والسعادة، المكر والطيبة ، الخديعة والبراءة . يعرفها جيدا هذه العيون الطامعة ، والطامحة . ظاهرها يقول شيئا . وباطنها يقول شيئا آخر . كثيرا ما رأى ذلك الباطن . وراء عيونهم ،في حياته . كثيرا ما ودّ ان يقول للعمدة ، ما لا يراه العمدة ، لانه لم ينظر في عين احدهم ابدا . ومن ، كالعمدة ، ينظر يوما الى ظله ؟ لكنهم كانوا كثرة ، وكانوا يمتثلون ، ويحنون رقابهم ، ليعزف عليها العمدة ، كما يعزف الشاعر على ثقوب الناي ، يعزف على أيها شاء . باي اصبع من اصابعه العشرة . وكانوا قد جلسوا .

ابتسم صابر للمشايخ والاعيان . تاملهم واحدا واحدا . ثم اظهر الجد والعبوس فجاة ، وقال لهم :

ـ لنضع من بعده تقليدا جديدا لهذا المجلس ، في حياته الثانية من عهده الميمون . نظروا اليه حيارى متسائلين ، فاضاف بزهوحزين:

ـ لنقف ، كلما جئنا هنا ، دقيقة ، تحية للصورة ، لصاحب الصورة حدادا على روح العمدة .

شعر ، في قرارته ، ان عاصفة من الضحك توشك ان تنطلق من حوله ، وتنفجر فيوجهه ، وانه يبدو بمطلبه مضحكا . ود لو يفلعوا. تمنى في ذات اللحظة الا يفعلوا ، فلا قبل له الان بجمعهم ، ولا ينبغي ان ياخذهم الا كما اخذ العمدة آباءهم من قبل ، فرادى ، يضربواحدا فقط بالاخرين ، عائلة بسائر العائلات ،ثم يختار من عليه الدور .لكن المشايخ والاعيان ، كانوا يقفون صامتين . لوجوههم لون واحد، قسمات واحدة ، لعيونهم هذان الوجهان المريبان اللذان يعرفهما جيدا.

قبل ان يجلس صابر ، نظر الحاج محمود لساعة يده بغيظ . وقبل ان يجلس صابر ، جلس الحاج محمود ، وتبعه الاخرون من فورهم . أثارت الجلسة المبكرة ريبة صابر في الحاج محمود ، وفي كل من حوله . بدا واضحا انهم لا يعملون له حسابا . استنجد بالصورة من خلفه ، بروح العمدة في الصورة ، بعينيه في وجهه . راح يؤكد لنفسه ، ان عينيه تعيناه الان ، تسري في ظهورهم ، وتخترق عظام رؤوسهم . وعى عبث ما يفكر فيه الان ، ولا واقعيته . حدث نفسه بأن هناك مؤامرة تدبر ، بل نسجت خيوطها فعلا ، بل واتفقوا في نهايتها على الحاج محمود ، بالرغم من ان أحدهم لم يقل له شيئا .

راح صابر يراقبهم ، وقد وضع كل منهم رأسه في عبه . صامتا، واخذ يجتر افكار وخواطر خاصة ، لا يعرفها ، تثيرها الشيشة الدائرة بين الايدي ، المتنقلة بالدخان الازرق . بدوا مطمئنين وواثقين من الغد . لقد وزعت التركة .

رنا الى الحاج محمود في تساؤل ابتسم له الحاج محمود ، كما يمكن ان يبتسم قط لفأر . ورأى عينيه لا تنظران اليه ، بل تنظران اليه فعلا ، لكنهما لا تريانه ، كعيني عمدة ، كما كانت عينا العمدة. فكر ان الحاج محمود لم تكن له في حياتهابدا هذه النظرة .قال له الحاج محمود :

ـ أراك شديد الوفاء للعمدة ، الراحل ، مثلنا طبعا .

واضاف :

ـ بل اكثر منا فيما ارى .

تجاذبته العواطف بين القمة والقاع ، والرجاء واليأس . رأى نفسه يسب ويلعن . رأى نفسه ينهض مغاضبا . لكنه ظل جالسا، يمور داخله . اشار الحاج محمود بايماءة من رأسه الى الصورة ، قائلا في براءة مندهشة :

ـ زيارتك امس لضريحه . مناجاتك امس لصورته في غرفتك الخاصة ببيتك . مجيئك اليوم قبلنا بصورته ، لتضعها هنا ،على هذا الحائط ..

توقف الحاج محمود عن الكلام لحظة ، ثم .. لم يختم بداية حديثه . حدث صابر نفسه واجما ، ان الحاج محمود بدأ الان يلعب لعبة العمدة ، بدونه . فها هو يصمت قبل ان يتم حديثه، يترك البقية له ، وربما يتركها لمن حوله اذا تكلم . ودّ لو يعرف كيف كانت البداية مع العمدة . ربما كانت مثلما تبدأ الان ، تأخذ ذلك المظهر الجماعي الموحد .

انتبه صابر لعيونهم . يراها تحدق في ثيابه ، تبتسم بسخرية وخبث ، والوجوه جامدة ، وقورة ، ومتزنة . مع انتباهته ، وعى في ذات اللحظة ، معنى ان يلبس اليوم ، الان ، ملابس كملابس العمدة : القفطان ، والجبة ، لاول مرة في حياته ، مع انهم جميعا يلبسون مثلها . تأكد في تلك اللحظة من كل شيء مقبل . وجهد ليظل جامدا ، لا يسبر له غور ، فالصمت مفيد في مثل هذا الموقف ، ومحير . عاد الحاج محمود يقول :

ـ لذلك راينا ، ان نسنـد اليك ، مهمة الاشراف على مقبرته .

اكفهر وجه صابر ، وشعـر ان الماء يغمره ، والدوامة تديره ، كما كانت ، امـام السـاقيـة : اضاف الحاج محمود بلهجـة باردة ، وحاسمـة :

ـ أراك تسرعت بارتداء هذه الثيـاب . كان ينبغي ان تأخذ راينا، وتطلب المشورة . صمت الحاج محمود لحظة ، ثم عاد يقول :

ـ لكنني لن اؤاخذك على ذلك .

وغيّر الحاج محمود من لهجته . صارت آمرة وقاطعة ، وهو يقول:

ـ نحن جميعـا نقدر خدماتك للعمدة ، وللقرية ، ونقدر عواطفك نحـو الراحل . تعبتمن اجلنا ، ونرى انك بحاجة الى الراحة .فازحنا عبء المأذونية عنك ، لينهض بها شيخ الجامع . أنت تعرف ، ان الناس جميعا ، كانـوا غير راضيـين ،عـن قيامك بالمأذونية .

وظل الحاج محمود يتحدث بحسم ، دون توقف ، عـن اعفاءاتـه الاخرى له ، يبررها واحدا واحدا ، وصابر يسمع طنين حديثه ، ولا يعي منه شيئـا .

تطلع صابر في النهاية حوله ، مستجمعا نفسه ، مستنجدا بالخفراء الذين الحقهم بالعمل يوما ، واحدا ،واحدا،والذينمد لهم يدالعون في كوارثهم العائلية ، والذيـن لم يتحركـوا ابدا الا بامره .. فعاجلـه الحاج محمود ، ليحسم الموقف ، ليجعله يدرك ما صارت اليه الامـور الان ، قبل ان يرتكب حماقة ما ، بمناداة شيخ الخفر ، يفوت عليهاية فرصـة لاحداث ضجـة .

اقبل شيخ الخفر مسرعا . طأطأ راسه سامعا ، ومطيعا ، بين يدي الحاج محمود ، فحدث صابر نفسه ، بأن الرجال يتغيرون سريعا ، يسيرون مـع اتجاه الريح ، قال الحاج محمود لشيخ الخفر :

ـ كل الخفراء في اماكنهم ؟

ـ نعم يا عمدة .

ـ وفي مداخل القرية ؟

ـ نعم يا حاج .

اشار له الحاج محمود لينصرف ، ورنـا بشماتة الى صابر . (قال الغريب لصابر : البقيـة في حياتك يا صابر) . اوشك صابر ان يفعـل شيئا ما لا يعلمه ، همّ بأن يجرحه مثلا ، مدافعـا عن العمدة الراحل، وعـن نفسه ، ولو بكلمـة ملتوية . (قال له الغريب : لا تكـن مضحكا. وقعت الفأس في الرأس ، وقضي الامر) لكـن الحاج محمود عاد يقـول له ، مؤكـدا امره بالانصراف :

ـ يمكنك الان ان تذهب . واذا اردت شيئا ، فتعال اليّ .

اكد صابر لنفسه ، انه لن يستطيع ان يصل اليه ابدا ، الا بعد ان يستأذن ظله ، ويمر على ظله . اوشك صابـر ان ينفجر في غضب. تلفت حوله ، علـه يعرف هذا الظل من بيـن من حوله ، علـه يـراهفي مكـان ما مـن ساحـة الدوار الواسع .

وعى صابر ان الصمت قد سـاد الجالسين ، وان احدا لا ينظر اليه ، او يضحك ، او يتوقع منه حدوث رد فعل من اي نوع . ودّ لو فعلوا ، ليفرّج عـن نفسه ، ليعلـن عن رايه فيهم ، حتى في الحـاج محمود نفسه ، ليخيب فكرتهم عنه ، ليقول لهم .. لكن ، متى كانت له الشجاعـة على ان يفعل شيئا ، بدون الراحل ؟ وما جدوى ان يقـول الان شيئا مـا ؟ صار وحيدا ، وصاروا معا ، والخفراء الان يسيرون وراءهـم .

نهض مغاضبا ، في ذات صدره ، دون ان يبدو عليه ذلك . نظر فقط الى صورته بعتاب . يكـاد يبكي لانه تخلى عنه ، والثمرة كانـت تبدو دانية . لملم اطراف قفطانه وجبته . وانصرف مهرولا ـي سيره. سمعهم يضحكـون في تلك اللحظـة ، سمعه يقول لهم :

ـ ليس الان .

سمعه يضيف :

ـ الان ، فلنبدأ العمل . اقصد . فلنبدأ المرح .

سمعهم يضحكون . ربمـا ليبدأوا المرح ، وربما على مشيتـه المهرولة ، وخزيه . اوشك ان يلتفت اليهم ، يصيح بهم ، يؤكد لهم، ان دورهم سيأتي واحدا بعد واحد . فهم جميعـا ، مثله ، كانـوا ظلالا للعمدة الراحل . أوشك ان يعـود اليه ، ويشكره ، ويؤكـد لـه انه راض بما قضى ، علـه يسمح بأن يكـون لـه ظلا . لكنه هـو الاخر، كـان ظـلا مثله للعمدة الراحل ، والظل صار عمدة ، مصدرا لظـلال جديدة ، غيره هو ، وغيرهم جميعـا .

وجد صابر نفسه ينعطف من باب الدوار . تذكـر ان احدا لم يقدم له حماره . ودّ العودة من اجل حماره . ادرك ان الخفر سيضحكون لعودته ، وربمـا لن يتحرك احـد ليقدمه اليه ، وربمـا ضحكوا ، اذا راوه يضطـر لحل رباطه بيده ، واخراجه من حظيرته ، وربمـا ،ايضا، وضع برذعته على ظهره . (سمع الغريب يقول له في رثاء : وقع العجل فكثرت سكاكينه . ثم يقول : عزيز قوم ذل) أراد ان يضحك بكل مـا وسعه . فتح فمه ليضحك . شعـر بنفسه يوشك ان ينهار ، والضحكة ستخرج صرخـة باكية . فأسرع يجري عاديا ، ليشكو اليه ، وفي باله تنتفض ، مائلـة لـه ، صورة ضريحه .

ـ ٦ ـ

جلس صابر الى مكتبه ، بمواجهـة الصورة . راح يرقب السنة النار تتموج في المدفأة . تحيل فراغها الى وهج جهنمي مرتعش . يسمع تقصف الاوراق ، التواءها الى اعلى مع النار ، ازيزها الاسود . علـى وجهه ، تروح وتغدو امواج الضوء والدفء المتقاطعة . علـى الصورة ، تتراوح انفاس الموت النارية ، تحكم عليها بالصمت ، تخمـد منهـا العينان ، تهرب منهـا روح ذلك الذي لـم يعـد عمدة ، ولا مالكا ، ولا قدرة لـه الان على الكلام او الحركة ، من لم يعـد يخيف احدا ، يثير فيـه هيبة او احترامـا .

صارت الحجرة جحيمـا من حوله . أحس انهـا ستحترق به ، من طول ما تجف بالحرارة والدفء انه سيختنق مع احتراق الهواء فيالغرفة نهض مسرعـا ، وفتح مصراعي النافذة الخشبيين ، فتدفق الهواء بـاردا رطبا . صدمه مرأى اللبلابة ، تتسلق جذع شجرة الجميز العتيقة . تذكر انه كـان يحبهـا في زمـن مضى ، يعشق غصونها العديدة ، يفيء الى ظلالها ، ونسمتهـا الرطبة ، يأكل من ثمارهـا اللبنيـة الحلوة ، يداوي بها قروحه وبثوره ، عندما كـان هـذا البيت عشا من اغصـان السنط ، والقش ، والقاب ، والتبن ، والطين . حنق على اللبلابة، لانهـا تتسلقها ، تخنقها ، تلتف حـول ساقهـا ، واغصانها بالاف الخيوط ، والاوراق . ودّ لو يكـون لديه وقت ما ، غدا ، او بعـد غد ، ليجتث ساق هذه اللبلابة بالفأس ، ليمزق سائر هذه الاغصـان بالسكين . وعى فجاة انه هـو الذي وضع بذرة هذه اللبلابة ، عندمـا بدأ يبني هذا البيت ، ربمـا ليصنع حديقـة صغيرة لبيته الجديد ، وربمـا ليواري ماضيه القديم .

احس بالهواء يعود خريفيا كما كان . وجـد نفسـه يعطس. ويسعل ، ولج على البعد ، الخفـر الذين يحرسون بيته ، يتجمعـون ويتهامسون ، واحدهم يجري تجاه سور البيت ، راى شبحـا ينسل من بينهم عائدا الى البيت . خيل اليه انه زوجته ، او ربمـا احدى الخادمـات . كزّ على اسنانه بحنق . همس هانئا لنفسه :

« صاروا عيونا عليّ » .

التفت منفعلا الى الصورة صارخا ، ومعاتبا :

ـ أرايت يا عمدة ؟

لم تجبه الصورة ، لم يتحرك العمدة ، فهز رأسه بحزن ، وهمس للصـورة :

ـ مت واسترحت ، وتركت حصاد ما زرعت ، ليجنيها صابـر، ثمـار ما صنعت ليعاقب عليها صابر .

تذكر الاوراق والنار والمدفاة ، فاسرع عائدا اليها . توشك النار ان تخمد . ولما تحترق اوراق بالاسفل . امسك بسيخ الحديد القصير، ودفعه تحت الاوراق ، ورفعها بحذر . علقها حتى التحمت باطرافها النار ، ثم قلبها . جعل سوادها الى اسفل ، وبياضها الى اعلى، ولفحته النار ، ولسعت يده ، بسخونة السيخ ، فنهض عائدا الى مكتبه .

راح يرتب الاوراق الاخرى ، الثانوية ، التي لا معنى لها ، يتأكد من ان كل ورقة باقية لا قيمة لها ، ولا خطر عليه منها ، حين يراها من يأتي ، ولا بد انهم سيأتون ذات لحظة ، فلقد جرى احد الخفر تجاه السور ، وعاد شبح الى البيت .

خطر باب غرفة المكتب على باله ، فقفز نحوه ، حرك مزلاجه الى أسفل ، وجذبه في ذات اللحظة . لم يجد احدا . مد بصره عبر الفسحة الواسعة ، خيل اليه ان بابا بعينه يغلق برفق وحذر . وعي ان الباب لغرفة زوجته . طرد الخاطر الشيطاني من رأسه . عاشت معه على الحلوة والمرة . قدر انها قلقة عليه ، وانها لا تجسر ، ما تزال لا تجسر ، ان تواجهه ، في هياجه ، ان تأتي اليه ، في ازمته ، حتى يطلب منها ذلك . أكد لنفسه ، انه هو الذي عودها على هذا السلوك ، منذ ان صار كاتم اسرار العمدة ، وحامل اختامه . وراح يتذكر صور ماضيهما الحنون والودود ، حينما كانا ينامان معا ، على فراش من القش .

أحس بالوحدة تمنى ان يناديها . تمنى ان تأتي وحدها ، ان تكون له اما في تلك اللحظة ، ان يضع رأسه على صدرها ويبكي . وعى ان ما يحدث له الان ، امر خاص به وحده ، كساعة المرض ، كلحظة الموت ، ان ما يفعله الان سر ، لاينبغي ان تعرفه امراة . فمتى كانت المراة تؤتمن على سر ، بل متى كان هو يأتمن احدا ، اي احد ، على سر ؟ لذلك وحده ، اختاره العمدة ، ليكون الظل ، وكاتم السر ، العين التي ترى ، والاذن التي تسمع . وها هو العمدة قد مات ، وبقي هو وحيدا ، ينوء باسراره وخطاياه ، لا مبالاته به وبمصيره ، مع انه كان يعلم ان الموت هو نهاية كل حي ، خاتمة المطاف للاصل والصورة ، للشيء والظل .

ردّ الباب برفق ، وضغط المزلاج الى اعلى ، وعاد الى مكتبه . كانت الاوراق ما تزال تتقد متوهجة . فرك كفيه ، وهو يجلس . احس بهما ملتهبتين . لسعتهما النار في اكثر من موضع .

حاصرته الوحدة من كل جانب ، حين انطفأت النار ، وخرست امواج الضوء ، والدفء والحرارة ، والسنة الدخان ، حين بدت الصورة اكثر موتا أمام عينيه ، ولم تعد ترتعش وراء تخلخل الهواء بالغرفة . انثالت عليه الرؤى بلا رحمة ، كأمواج البحر . كدوامات الماء المتدافع ، امام البوابة الحديدية لقنطرة الترعة .

يسمع وهو عائد من ضريح العمدة ، ذلك الشاعر العجوز ينشد، مع ناي الليل :

« لك يوم ياصابر » .

في الخطوة التالية ، كان الشاعر ينشد وعيدا آخر ، فآخر . أرهف السمع ، حدّه ، كتم انفاسه ، فلم يسمع احدا . زعقت به ، وهو في طريق المحطة ، يوسع الخطا ، امراة منسية تضع يدها ،فوق راسها ، على دائرة من شالها الاسود :

ـ هات لي معاك طبقين صاج ، يا معلم صابر .

طرق باب عشته طارق الظهيرة ، نسيه مع ما نسي :

ـ ولد يا صابر . بعد العصر ، مرّ على البيت ،واصلح الطلمبة.

ناوله الاب قروشا للتمغة ، وقروشا لتعبه ، واعطاه اوراقا ليلحق ولده بمدرسة المركز . ينادي في طرقات القرية على من مات ، ومن تاه من اهله ، ومن هرب بعد جريمته ، ليسلم نفسه للدوار . يذهب حاملا شكوى اهل ناحيته ، يلتقي بالعمدة . ويرجوه ليسمح لهم بليلة ماء واحدة ، للارض العطشى . كان العمدة وحده في تلك الليلة ، صعد فيه نظره اعلى واسفل . ضحك فجاة ، صمت فجاة . بدا كمن يراه لاول مرة . لم يخف ما بنفسه . سأله :

ـ ما اسمك ؟

ـ صابر . محسوبك صابر .

قال له العمدة :

ـ وجهك يذكرني بالحية ، بالثعبان .

جف الدم في عروقه امام العمدة . ضحك العمدة . ضربه على كتفه بكفه . قال له :

ـ ما رأيك ؟

تداعى صابر امام رقته المفاجئة ، كالتراب امام الماء ، كالقشة في مواجهة النار . قال :

ـ الرأي لك يا حضرة العمدة . لكن الناس يسمونني . يسمونني.

ـ ماذا يسمونك ؟

ـ النمس .

ضحك العمدة . ردد وهو يضحك :

ـ النمس ؟ النمس !

عبس فجاة ، وأكد :

ـ ليس اسما مناسبا . الثعبان افضل . وجهك كالثعبان ،واحسب ان قلبك ابضا كقلب الثعبان . ما رأيك ؟

وجد نفسه مسحورا ، طيعا كالطين ، والعجين ، يقول :

ـ نعم يا حضرة العمدة .

ساله العمدة :

ـ ماذا تفعل ؟

ـ كل شيء يا حضرة العمدة ، كل شيء .

اعلنه العمدة :

ـ اذن ، فانت ثعبان حقيقي ، لانك توجد في كل مكان ،متخفيا، نادرا ما يراك احد . الكل يحبك حتى لا تلدغه . الكل يكرهك لانه يدفع لك .

همس برقة ، بدهشة ، متظاهرا بالخوف ، فلم يكن تابعا له بعد ، ولم يكن قد استاجره :

ـ نعم يا حضرة العمدة . كيف عرفت ذلك يا حضرة العمدة .

فجاة . قال له العمدة :

ـ ستعمل معي .

ـ أسير كرمك يا حضرة العمدة .

ـ معي ستكون حمامة .

ـ ظلك يا حضرة العمدة .

ـ تماما . هذا ما اريده . ومع الناس ، مع كل احد سواي ، ستكون .. هه ؟

ـ ثعبانا يا حضرة العمدة .

ـ ابتسم العمدة . وعاد يساله :

ـ تعرف القراءة والكتابة ؟

ـ والحساب ايضا يا حضرة العمدة .

ـ طيب . الان ، فلنبدأ . اولا : مزق هذه الشكوى .

كاد ان يصرخ : « والماء يا حضرة العمدة . الارض عطشى ! » انقذه ذلك الثعبان الخفي في داخله . قال بسرعة ، وهو يمزق الورقة :

ـ أمرك يا حضرة العمدة .

اخذ يمحو من رأسه الماضي كله ، والارض العطشى . وبتابع حركة الثعبان يسعى في داخله . ورأى ابتسامة العمدة . وفكر ، انه يفكر، في تلك اللحظة ، انه قد عثر على رجله . تذكر من مجلسه الليلة، تلتف حول شجرة الجميز ، وتخنقها ، كالثعبان . قال له العمدة :

ـ اجلس . سأملي عليك خطابا الى عمدة « قرقيرة » وستحملها

اليه سرا ، وتعود برأيه خفية . ارني لباقتك في اقناعه . تذكر انك ثعبان .

انفجر صابر يضحك . صمت فجاة ، حين فكر ، ان الثعبان قد خلعت الليلة اسنانه ، ونزع كيس السم من جبهته ، والثعبان بلا اسنان سيموت جوعا ، وبلا كيس سم ، ستقتله اول فأس ، ستدوسه اصغر قدم . هب فزعا الى المرآة : هل له حقا هذا الوجه ؟ كيف لم يسأل نفسه ابدا ؟

من المرآة ، طالعه وجه بيضاوي ضامر ، مصفوط الخدين ، بارز الوجنتين ، مستدير المحجرين ، والعينين الواسعتين . اكتسح الشيب رأسه ، وعريت جبهته الضيقة البارزة من الشعر ، وتضخمت اذناه ، وظلت بشرته ، كما كانت ، عبر كل السنين ، ملساء ناعمة ، لزجة . هتف :

ـ اللعنة عليك ياحضرة العمدة .

استدار حانقا الى الصورة ، ليمزقها . طالعته الصورة فجاة ، انتفض في عينيه السيد بكل هيبته . وجم للحظة . رنا الى الصورة عاد يضحك . فكر ان الحاوي قد مات . قفز الى رأسه الحاج محمود . فكر . تذكر . انه يراه الان ، يسمع حتى همس خواطره . ابتلع البصقة التي كاد ان يقذف بها الى الصورة . همد جالسا في كرسيه .

تواثبت في راسه خواطر شيطانية . الحاج محمود يراه الان . يسمعه . ابتسم . هذا افضل . نزع ملابسه ، وتعرى ، وراح يرقص امام المكتب ، امام النار المشتعلة ، امام الصورة ، في الدوار . ارتدى ملابس العمدة . قلد الحاج محمود . تحرك تلك الحركة الخشبية المتصلبة ، كالعمدة . أطل من فوق الرؤوس ، ناظرا الى لا شيء . وعى اللحظة ، ان ذلك كان امرا مضحكا ، فضحك ، لان احدا آخر لم يكن يضحك . الشاعر وحده ، كانت تتراقص على شفتيه ابتسامة ، تتخفى ، وراء عينيه ، التماعاتهما المتوجة . ما يزال يراها ، ابدية ، وساخرة ، حتى ووجهه مصفر كالليمونة ، امام العمدة . سأل الحاج محمود :

« هل تعرف هذا ايضا ؟ هل تقدر ان تمس شاعر القرية ؟ ازتصبح قريتك بلا شاعر ؟ موكبك بلا شاعر ؟» .

وعى انه لم يزل هامدا ، على كرسيه ، عاجزا عن ان يرقص ، او يتعرى ، او يضحك . تمنى لو يذكر موالا واحدا للشاعر ، يرفع به صوته من قلبه . وهو يضحك ، ويبكي ، حزينا ، وسعيدا ، يرفع صوته حتى تتصدع له جدران الدوار ، ويصفق به الاعوان ، والحواشي ، والصور ، والظلال ، وشجيرات اللبلاب . الم يسعفه القلب او العقل ، لكن العين ما تزال تراه ذلك الشاعر الرث الثياب ، الممزق النعلين ، امير الصعاليك في قرية العمدة ، صديق الاباء والامهات . حبيب البنات والزوجات ، على فقره وضياعه ، فكر صابر :

« هل يتركه الحاج محمود الان ، بعد ان أحرق الاوراق ، واجترأ في مجلسه على المحرمات ؟ » .

هب منزعجا للخاطر . مدّ يده الى الحائط تناول بندقية بها طلقة واحدة . كقبضة الموت . وضع فوهتها بين العين والاذن ، فوق تفاحة آدم ، واطلق . ذاق الموت لحظة قصيرة . فتح الغطاء الاسود لخاتمه الذهبي . افرغ السم في فمه . تلوى . صرخ صرخة هائلة ، ثم سقط الى الابد . ذاق الموت لحظة قصيرة . تدلى مخنقا بسلك اللمبة ، بسلسلتها الحديدية ، برز لسانه ، وجحظت عيناه خارج المحجرين ذاق الموت لحظة قصيرة . في اللحظة التالية ، قبل ان يطلق الرصاصة ، قبل ان يسكب السم في الفم ، قبل ان يخرج اللسان بلا حول ، امتدت يدا الحاج محمود ، اوقفته . ساقه حراسه ، من كانوا له اتباعا ، ليذوق موتا اطول ، حياة كالموت . ركب حمارا بالمقلوب . زينوا رأس الحمار وعنقه بالورد . ورأسه هو بريش الدجاج والبط ، تحت « عصبة » نسائية محلاة بالترتر . زفة الاطفال والنساء في حراسة الخفر ، يغني الاطفال :

ـ يا بو الريش . ان شاالله تعيش .

كان طفلا صغيرا ، في الثالثة من عمره ، تحرسه امه ، تحوطه بساعدها حتى لا يسقط . شنشنت النسوة بالشيلان ، مجيبات ، نائحات ، نادبات :

ـ يا صابر ياوش القمله . مين قال لك ، تعمل دي العمله .

يسير الحمار به ، مقمض العينين . تسنده فوهة بندقية مدفوعة في صدره حتى لا يقع . تنهال عليه سياط الجلادين ، ركلاتهم ، احزمتهم . (يجلسونه على خازوق) يطعمونه اوراقا مليئة بالحبر . يصبون في فمه ذهبا سائلا . يمسك بفأس ، ويقطع الحجارة . يتوقف لحظة ، يمسح عرقه ، يكتسحه الحارس بفرسه وسوطه ، يقف فوق طبلية الاعدام ، مفتوح العينين ، موثق اليدين خلف ظهره . يقفون امامه صفا واحدا الوجه ، يحمل الف بندقية .

يهب صابر فزعا . يقع الكرسي لهيئته . تقع عيناه على اللبلابة الباسقة تتدلى منها قرون البذور التي طابت ، تملؤها الاعشاش والافراخ . يتذكر عرفان العمدة له . نسي الناس اسم العمدة ، ولم يعودوا يذكرون سوى انه العمدة . حتى قام الشاعر يوما للعمدة ، متوسلا ، بل ساخرا :

ـ انا يا عمدة ؟ انا عبد ياعمدة . نحن عبيد احساناتك يا عمدة .

همهم العمدة متوعدا . ضحك راضيا . فكر صابر ان العمدة كان ظلا للعمدة الاعظم ، على ارض القرية ، وانه كان ظلا للعمدة في دوار القرية ، ظلا للظل . رفض العمدة ان ينهض لظله مرحبا ، حتى لا يجلس ظله في مكانه ، رفض الظل ان ينهض لظله ، ان يتوحد به بكلمة ، يخلفه بها من بعده . فكر صابر :

« لولا الظل ما كان العمدة . لولا ظل الظل ، ما كان ظل صاحب الظل »

قال الشاعر :

ـ ما فات مات ، وكل ما هو آت آت .

حكى الشاعر ، عن عبدة صنم ، من خشب ، من حجر ، صنعوه بأيديهم ، عبدوه وصاروا اسراه ، عن كهنة معبد ، لا يتحرك احد: يتزوج ، يسافر ، يبيع ، يشتري ، الا بامر كهنة المعبد . امر الوهم يحمله اليهم اشباح الوهم ، ظلال الظل ، اطياف الحلم .

يشعر صابر انه يصحو من غفوة طويلة ، من مرض مدمر ، من اغماءة كالموت . جزع منها العنق ، وكسل الكبد ، وتراخت العضلات . وعى فجاة جمال ما حوله في الغرفة : الجدران ، والمدفاة الفخارية ، وشجرة الجميز . انبسطت امامه المزارع ، والترع ، والقنوات ، والوان الفصول والزهور ، وتقلبات السحب ، وتحولات السماء ، واجنحة الفراشات ، وابى قردان . كيف كان كل هذا الجمال ، من حوله ، هامدا ميتا ، بعيدا ، ونائيا ، لا يرى ولا يسمع . عزم صابر ، عاهد نفسه ، لو طال به العمر ، لو نجا ، ان يعانق الدنيا ، يصافح الناس ، يجلس الى الشاعر ، في الليالي المقمرة ، والليالي الرطبة ، يفتح له قلبه ، يبكي على صدره حتى ينفطر ، وينطهر .

همّ صابر بان ينتهد للراحة المقبلة ، للسلام ، والامل . التفت عائدا الى كرسي واطرء بجوار المدفاة . قبل ان يجلس ، رآهما ، ثم رآه : شيخ الخفر ، ونائبه ، في قلب الغرفة ، والباب مغلق ، وشيش النافذة مفتوح ، ومرئي ، ولم يسمع صوتا .

وجم صابر ، ثم ابتسم ، نهض مستسلما . اجال عينيه في الغرفة كل شيء فيها يموت لعينيه اللحظة . عادت الاشياء اشياء : اوراقا، احجارا اخشابا ، الوانا باهتة ، وداكنة .

قال صابر لشيخ الخفر :

ـ الى اين ؟

اجابه شيخ الخفر :

ـ الى ضريح العمدة .

تحير صابر . عاد يسأل :

ـ كيف ؟

قال شيخ الخفر :

ـ نحن عبيد العمدة .

قال صابر لشيخ الخفر ، محدثا نفسه :

ـ هي النهاية اذن !

قال شيخ الخفر ، مبتسما ابتسامة محيرة :

ـ بل هي البداية .

فكر صابر انه هناك سيعيش البداية والنهاية معا . تذكر الشاعر . عاد الشاعر يحكي ، عن اقوام ماتوا ، واندثرت ديارهم ، عن بلاد تحرق فيها الزوجة حية ، مع جثمان الزوج الميت ، عن السندباد يدفن حيا مع زوجته السيسبان التي ماتت ،عن ظلال باني الهرم ، حبسوا مع الجسد العظيم ، المسجى للفرعون الاعظم ، حتى ماتوا جوعا وعطشا ، خنقا وانتحارا .

مد صابر يديه لشيخ الخفر ، ليضع فيهما القيد . فتح له شيخ الخفر كفيه ، فلم ير فيهما قيدا . قال شيخ الخفر مبتسما :

ـ قيدك هناك . في ضريح العمدة .

مشى صابر بين الخفر . انفتح الباب ، وورب باب . سمع آهة مكتومة وراءه . وهي انه بعد قليل ، سيكون حارس مقبرة . نسجت عيناه اطرا متوالية ، لصور العمدة . خطر بباله ، انها ، الان ، ليست له . الاطر كما هي ، والصورة تغيرت . ولم يشعر ، في نفسه ،لذلك التغيير باي معنى . فهو الان رجل ميت حي ميت ، بل ميت حي.فما قيمة الظل ، وصورة الظل ، وظل الظل ، وظل ظل الظل ؟!

في الطريق ، برز له المشهد ، وهو في قلبه ، كما تبرز الصورة مهتزة ، في مياه رجراجة : اوقفهم الحاج محمود . سأل :

ـ الى اين تذهبون به ؟

اجابه شيخ الخفر :

ـ ننفذ امرك يا حضرة العمدة .

يهز الحاج محمود راسه ، يمنة ويسرة ، قائلا :

ـ لا لا . مثله لديه خبرة ، ونحن بحاجة اليه ، حاجته الينا.

يشعر انه في قلب مشهد وهمي ، بعيد وناء ، وانه يختنق . يطفر بعينيه مشهد وهمي اخر : يلمح الشاعر يقف ، علىمبعدة، باهتا كالشبح ، يرنو اليه بعينين متفرجتين . يفكر صابر انه، الان ، يحصل على السلام ، والنوم . يرفع رأسه ، ويقول بصوت الغريب في داخله ، للحاج محمود :

ـ لا . سأحرس مقبرته . لنادعهيخرج منها أبدا .

يرى الحاج محمود يكتئب لقراره . يرى الشاعر يبتسم له في عرض الطريق ، يسمعه يغني ، في الحارات ، والازقة ، خيانته ، لامرأة منسية ، تضع يدها ، فوق رأسها ، على دائرة من شالهاالاسود لشجرة جميز تعتصرها خيوط اللبلابة ، لارض عطشى مزقت فوقها ورقة . اكد لنفسه :

ـ سأحرس مقبرته . لن ادعه يخرج منها ابدا .

يدفعه شيخ الخفر باتجاه الضريح ، يسرع الخطا اليه ، حتىيعدو شيخ الخفر ، ونائباه وراءه ، حتى يفوتهما بعيدا (يساله الغريب ضاحكا : الى أين ؟) يفكر صابر انه سينام في حضن الموت ، يحرس الموت ، بجوار العمدة ، والعمدة ميت ، وهو يكره الموت ، وكان مثل العمدة يزرع الموت . ولم يلتفت صابر خلفه ، وهو يهبط درجات البيت !!

(القاهرة) سليمان فياض

سليمان فياض

العيون

مجموعة قصصية جديدة لهذا القصاص الفنان الذي يعد في طليعة القصاصين العرب تعبيرا عن ازمة الانسان العربي في المجتمع الحالي .

صدر حديثا الثمن ٣٠٠ ق.ل.

منشورات دار الآداب